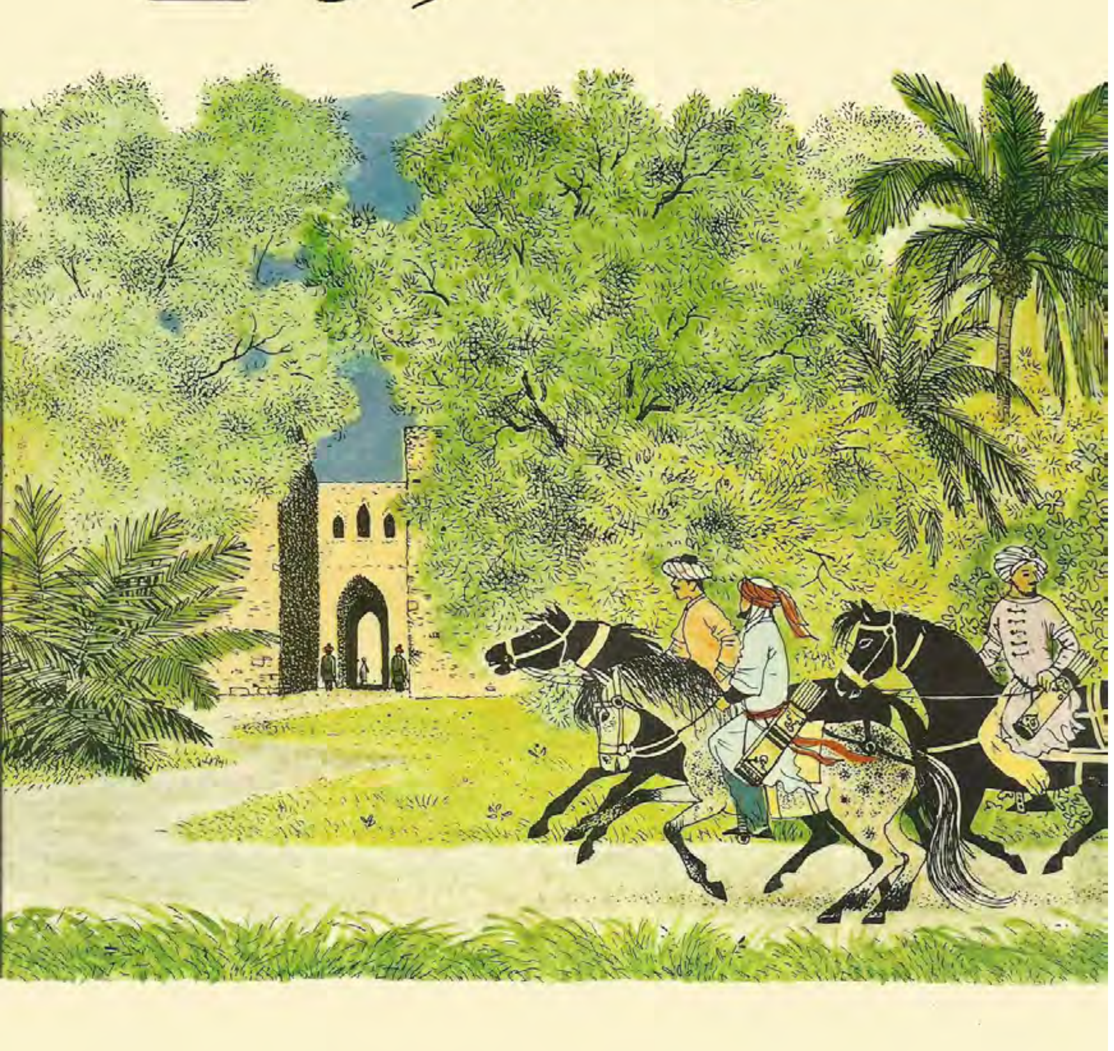
قَصْرُ الأخَيْضِر

دار
ثقافة
الأطفال



١٨ السلسلة التاريخية

السلسلة التاريخية

١٨

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الأطفال
قسم مكتبة الطفل

تم انتاج هذا الكتاب بالاشتراك مع مؤسسة سارتك ـ لوزان.

قَصْرُ الأُخَيْضِر

قَبْلَ البَدءِ بِسَردِ قصَّةِ سالم ورفاقِهِ، تَعالُوا مَعنا نَتعرَّفُ على القَرْيَةِ التي تَرَعْرَعوا فيها.

إنَّها قَرْيةٌ كغَيرِها منَ القُرَى، بَيْضاءُ تميلُ إلى الغُبرَةِ بمَسْجِدِها وبِبئرِها وتَسرحُ الأغنامُ في أَنْحائِها ويجلسُ شُيُوخُها في ظِلِّ الأشْجارِ بيْنَما يَمْرحُ الأطفالُ ويتراكضُونَ حَوْلَ البِئرِ.

تَقَعُ هذِهِ القريةُ بالقُربِ من قضاءِ عَيْنِ التّمرِ في العراقِ في مَنطقةٍ جذّابةٍ للغايةِ، منْ جهَةٍ بِسَببِ وُجودِ مِساحَةٍ شَاسعةٍ منْ مِيَاهٍ شديدةِ المُلوحَةِ في قَلْبِ الصَّحراءِ تُسمَّى بـ "هور الملح"، ومِنْ جهةٍ ثانيَةٍ بِفَضْلِ آثارِ حِصنِ الأخَيْضر المُدهشِ - قصر الأخيضر - ما أعْرَقَهُ، إنَّهُ جاثِمٌ هُناكَ في الصَّحراءِ على مَبْعَدةِ بِضعَةِ عشَراتِ الكيلومترات من القَريةِ يتآكل بِبُطءٍ على مرِّ السِّنينَ بفعلِ القساوَةِ المُتواصلَةِ لِلرِّياح المحمَّلةِ بالرِّمالِ.

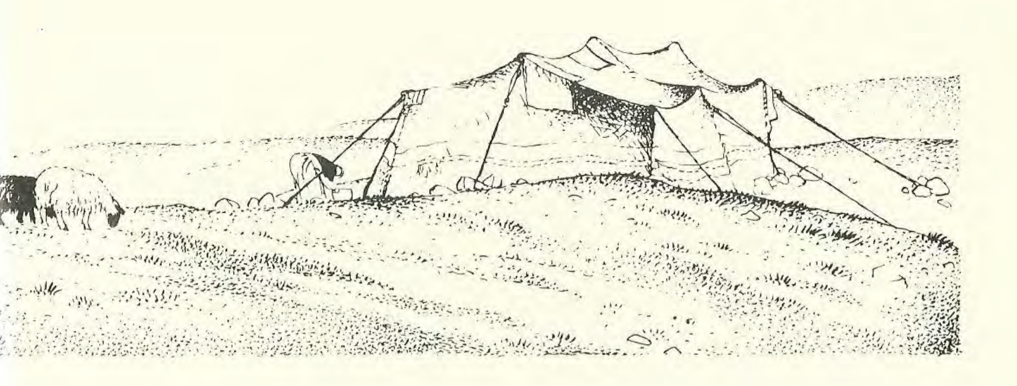


أمَّا سالم فكان كغَيرِهِ منَ الأوْلادِ، أسمَرَ البَشْرةِ، مُجعَّدَ الشَّعرِ، بَشوشاً، يَمزَحُ مع رِفاقِهِ وإخوتِهِ وأخواتِهِ وأهلِهِ جميعاً. وكان جـدُّهُ أشْهـرَ راوٍ لِلحِكـايـاتِ في القَـريـةِ بِأَسْرِها. . .

والآن فَلنَبدَأْ القصَّةَ. . .



كَشْفٌ أثَــرِيٌّ



ها هُو الرَّبيعُ، وعائلَةُ سالم قَدْ رحلَتْ مع أغْنامِها بحثاً عن مرابِعَ جَديدَةٍ.

وبما أنَّها فَترَةُ العُطلَةِ المَدرسيَّةِ فإنَّ سالم وابنَ عمِّهِ فَريد واثنَينِ من أخواتِهِ يُرافقونَ والدَهُمْ وإخوانَهُمُ الكبارَ في هذه الرِّحلَةِ التي سَتقُودُهُمْ في يَومٍ ما إلى أطرافِ سُورِ قَصرِ الأخيضر. لَيْسَتْ هذه المرَّة الأُولى التي يتمَتَّعُ فيها سالم برُؤْيَةِ هذا القَصرِ، فَفي كلِّ سنةٍ تَقريباً تَمُرُّ الأغنامُ المتوجِّهَةُ نَحْوَ المَراعي والكَلإِ بالقُربِ من قَصرِ الأخيضر وهِيَ محطَّةٌ مألوفَةٌ. ولا تَفوتُ هذه الرِّحلَةُ على سالم حَيْثُ يَشْتَرِكُ فيها كُلَّما سَمَحَ لَهُ دوامُهُ المدرسيُّ بِذلكَ. ولَطالَما سَحَرَهُ القَصرُ ومنَحَهُ نشْوَةً جديدةً في كُلِّ مرَّةٍ بِمشْهدِ سُورِهِ العظيمِ البالغِ طُولهُ سبعمائة متراً والمُتصدّعِ جُزْئيًّا والذي تعلُوه ممرَّاتُ الحِراسَةِ بالإضافَةِ إلى أبراجِهِ الثَّمانيَةِ والأربَعينَ ومَداخِلِهِ الأربعَةِ الهائلَةِ التي على جانبَيْ كلٍّ منْها دَرجٌ فَخمٌ.

إنَّ التَّبايُنَ بَيْنَ رَوْعةِ هذا البِناءِ ومُحيطِهِ الصَّحراوِيِّ يُثيرُ المُخَيِّلَةَ وسالم لا تَنقُصُهُ سَعَةُ الخيالِ.

ذَهَب سالم ذاتَ يَومٍ مَعَ ابنِ عمِّهِ فريد وأُختِهِ حورية في نُزهَةٍ حَوْلَ القصرِ فـأخَذُوا يَتسَلَّقونَ أكْوامَ الحِجارةِ الآجُرِّيَّةِ المُتصَدّعةِ في أماكنَ عديدَةٍ والتي كَانَت تُشَكِّلُ فيما مَضَى سُوراً شاهقاً مَنيعاً.



لقَدْ كانَ هذا الجدارُ السَّميكُ قَبْلَ ما يَزيدُ على أَلْفِ عامٍ يَحمي قَصْرَ الأميرِ عيسى بن موسى الذي كانَ مِنْ رجالِ بَلاطِ بغداد الأثرياءِ وابنَ أخِ الخَليفةِ أبي جعفر المنصور. ترَى هَلْ كانَ هذا القَصْرُ للأميرِ عيسى بن موسى أمْ لِجَدِّهِ عيسى بن علي أو لِغَيرِهِما ؟ لَا أحَدٌ يَعْلَمُ عِلْمَ اليَقينِ مَن شَيَّدَ هذا القَصرَ الذي ظَلَّ يَحْتَمي بِسُورِهِ صامتاً مُنْطَوياً على أسْرارِهِ.

وإذا اجْتازَ المرْءُ سُورَ القَصرِ فستَراهُ سارحاً في تَخيُّلِ حياةِ التَّرفِ والبَذَخِ التي كانَتْ قائمةً فيه.

وحينَ تَمَّ للرِّفاقِ الثَّلاثةِ اجْتيازُ السُّورِ اتَّخذوا رِواقاً طويلاً مُظلماً مُتصدِّعَ الجُدرانِ هو الآخر، فتراءَتْ لَهُمْ في نِهايَتِهِ خُيوطٌ من ضَوْءِ النَّهارِ هدَتهُمْ إلى فناءٍ واسعٍ مُحاطٍ بالأعْمدَةِ. وكانَ الحَرُّ شديداً والشَّمس مُحرقةً تَلهبُ الفنـاءَ الذي عجَّ بـالغُبارِ الذي أثـارهُ ركضُ الأطفالِ. كَما خيمَ على المكانِ سكونٌ عميقٌ جعلَ الأطفالَ يَخفِضونَ أصْواتَهُمْ بِلا شعورٍ.

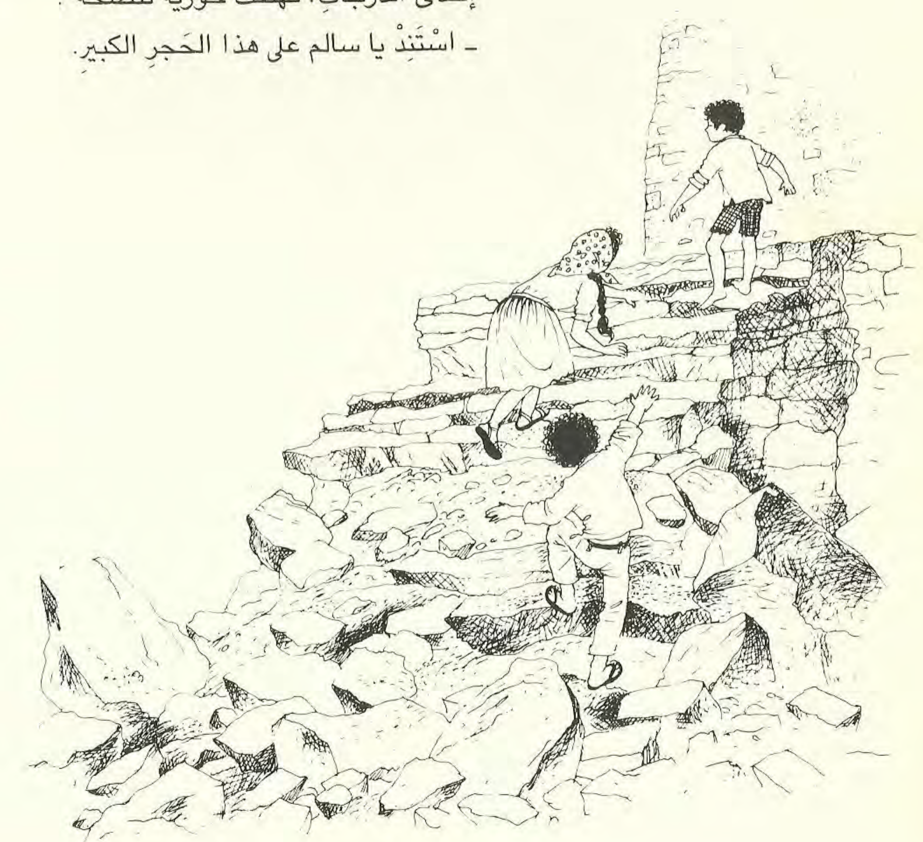
وفجأةً هَمسَ فريد :

ـ ماذا لَو تَسَلَّقنا الأسْوارَ ؟

وبَعْدَ بُرهةٍ وجيزةٍ عَثروا على الدَّرجِ الذي يُوصِلُ إلى قمَّةِ أحدِ الأبراجِ المُؤَدِّيَةِ إلى ممرٍّ

الحَرَسِ (لا شكَّ بأنَّكُمْ تَعرِفـونَ تلك المَمرَّاتِ الضَّيِّقـةِ المبنِيَّةِ في أعالي الأسْوارِ والتي يسلُكُها حرسُ القَصْرِ أثْناءَ دَوْرِيـاتِهِمْ لِمُراقَبـةِ القَصرِ ليلاً ونهـاراً). وفَجأةً تـوقَّفَ الجميعُ عنِ الصُّعودِ، ترى ماذا حَدَثَ ؟ لَقَدْ عُلِّقتْ قَدَمُ سالم، الذي أراد صُعودَ هذا الدَّرجِ المُتهدِّمِ متسلِّقاً كُلَّ درجتَينِ معاً، في حُفْرةٍ خَلفَتْها إحدَى اللَّبناتِ المُنْهارةِ من إحدى الدَّرجاتِ. فَهَتَفَتْ حورية تَنْصحُهُ :

- اسْتَنِدْ يا سالم على هذا الحَجرِ الكبيرِ.



فَعَملَ سالم بِنَصيحَتِها واسْتَندَ على الحجر وشدَّ قَدمهُ بعُنفٍ وقوَّةٍ، وإذ به يَتَدحْرَجُ إلى أسْفلِ الدَّرج بِسُرعةٍ تَفوقُ تلك التي أرادَ الصُّعودَ بِها جارًّا مَعهُ فريد وحورية وسَيلًا منَ الحَصى والأتْربَةِ التي انْهالَتْ على رُؤُوسهِمْ دونَ أنْ تُصيبَ أحداً من أصْدِقائنا المُغامِرينَ الثَّلاثةِ بأذى كبيرٍ.

قام فريد وحورية وهُما يَضحكانِ من وقْعتِهما وتابعا جَولَتَهُما الاسْتِطْلاعيَّةَ. وظلَّ سالم فَترَةً في مكانِه مُترنّحاً وَسَطَ أكْوامِ الحِجارةِ الآجرِّيَّةِ المُتراكمةِ حَوْلهُ يتحسَّسُ الكَدْمَةَ التي بَـرزَتْ على جَبهتِـهِ. وأخـذَ، بِصـورةٍ لا شُعوريَّةٍ، يزيحُ الأنقاضَ المتراكمَةَ حَوْلَهُ. وفجاَةً اسْتَرْعى انْتباهَهُ حجرٌ مُدَوَّرٌ بِحجمِ قَبْضةِ اليَدِ. فأخْرَجَ سكِّينَهُ وبدأَ يزيلُ بها الطِّينَ اليابسَ العالقَ بِه بِصَبرٍ وأناةٍ. ومرَّ الوقْتُ وسالم مُنَهمِكٌ في عَملِهِ وقَد أدركَ بِأنَّه حجرٌ غريبٌ





لَيس كغَيْرِهِ منَ الحجارةِ، إلى أنْ بدأ يَظْهرُ بَيْنَ يدَيْهِ شَكْلٌ مألوفٌ، وكأَنَّهُ شَكلُ حَيوانٍ... إنَّه أسدٌ بكُلِّ تأْكيدٍ : فَها قَدْ ظهرَ خَطمُهُ وأُذُناهُ الصّغيرتانِ المُدوَّرَتانِ وعَيْناهُ المُتباعِدتانِ وشِدقُهُ المُخيفُ وقَد بَرَزَ مِنْهُ نابانِ طَويلانِ مُدَبَّبانِ. وها هِيَ لُبدَتُهُ المُصفَّفَةُ بانْتِظامٍ حَوْلَ رأسِهِ وتَتَهدَّلُ بثقلٍ فَوْقَ ظَهرِهِ. وها هيَ أخيراً قائمتاهُ الأمامِيَّتانِ وقَدِ انتصَبَتا تَحْتَ شِدْقِهِ.

نادَى سالم رفيقَيْهِ بِصَوْتٍ يَتَهَدَّجُ انْفِعالاً وغِبْطَةً قائلاً :

ـ تعالي يا حورية، تعالَ يا فريد، انظُرَا لقد عَثرتُ على شَيْءٍ.

فأقْبلا صَوْبَهُ وهُما يَركضانِ، وتأمَّلا بِفضولٍ وبغِبْطَةٍ لا تَخلو من الحَسدِ، الحَيوانَ المصنوعَ مِنَ الخزفِ (الطِّين المشْوي) الذي ظهرَتْ مَعالمُهُ علـى الرَّغمِ من طَبقَةِ الطِّينِ

والتُّرابِ التي ما زالَتْ تغلِّفه. فانكَبَّ الأطفالُ على كَوْم الأنقاضِ بحماسٍ يُنقِّبونَ فيه تنقيباً كاملاً... ولكن دونَ نتيجَةٍ. وعندما بدأ اللَّيلُ يُرخِي سُدولَهُ دُونَ العُثورِ على شيْءٍ جديدٍ، عادوا على مضضٍ إلى قريَتِهِمْ، جزعينَ من تأخّرِ السَّاعةِ.

غير أنَّ سالم قد وجدَ لَدَيْهِ، قَبْلَ مُغادرةِ المكانِ، متَّسعاً منَ الوقتِ لتَخبِئَةِ أسَدِهِ بِعنايَةٍ في تَجْويفٍ بَيْنَ حجارةِ الدَّرجِ الآجرِّيَّةِ.

لَمْ يكُنْ هذا اليَومُ كغيرِهِ منَ الأيَّامِ، لَقَدْ وقع فيه ما يَستَحقُّ الذِّكرُ. وتمَّتِ العَوْدةُ إلى القَريةِ بِصمتٍ وقد شَرَدَ كلُّ واحدٍ مِنْهُم في أحلاَمِهِ، لقَد أثارَ هذا التِّمثالُ الصَّغيرُ الغامضُ خيالَهُمْ وفُضولَهُمْ. ترى في أيِّ عَصرٍ صُنِعَ؟ مَنِ الذي اقْتَناهُ؟ في أيِّ مكانٍ وُضِعَ؟ وأطْلَقَ سالم لخيالِهِ العنانَ مُحاولاً تصوَّرَ الحياةِ التي عاشها أهلُ هذِهِ القَلعَةِ حَسْبَ ما كانَ يَصِفُها بِهِ الجَدُّ أحيانًا في الحكاياتِ التي كانَ يَرْويها في بَعْضِ الأمسيَّاتِ الرُّطبةِ بعْدَ العشاءِ عِندما يلْتفُّ حَولَه أهلُ الدَّارِ في الباحةِ الدَّاخليَّةِ.

ووطَّدَ سالم العَزمَ على أن يعودَ متى ما سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصةُ إلى الأنقاضِ لإتمامِ عَمليَّةِ تَنْظيفِ أسدِهِ والشُّروعِ بالتّنقيبِ عن أشْياء أُخرى.





ولم يكُنِ الحَظُّ بِجانِبِ سالم هذه المرَّة فَقَدْ رأى، آسفاً، الماشِيَةَ وهيَ تُغادِرُ في اليَومِ التَّالي بحثاً عن الكَلإِ وكانَ يَشعُرُ بِقَلقٍ وهو يَبْتعِدُ عَنِ المكانِ راجياً أن يكونَ أسدُهُ مَخْبوءاً على أحْسَنِ وجهٍ رَيْثَما يَعُودُ لَهُ في المرَّةِ القادمةِ.

حِكايَــةُ الجِــدِّ

مرَّتِ الأيَّامُ ومضَتْ فَترَةٌ طويلةٌ على رُجوعِ سالم إلى القَريَةِ واستِئْنافِهِ الدَّوامَ المَدرسيّ وهو يفكِّرُ مِراراً بِقصرِ الأخيضرِ وبالأسدِ الذي أخفاهُ بعنايةٍ تامَّةٍ في الأنقاضِ.

وفي إحدى الأمْسيَّاتِ حَيْثُ كان الجوُّ رائعاً اجتمعَ أهْلُ الدَّارِ والجيرانُ كعادَتِهِمْ في باحةِ الدَّارِ. وكانَ سالم يَسْتَمِعُ شارِدَ الذِّهنِ إلى أحادِيثِهِمْ. وفَجأَةً رفَعَ رأسَهُ ليُركِّزَ انْتِباهَهُ إذْ بدَأَ الحديثُ يَدورُ حَولَ القَصرِ القديمِ القَابِعِ هُناك في الصَّحراءِ وكذَلك حَوْلَ الآثارِ وجفافِ الأرضِ.

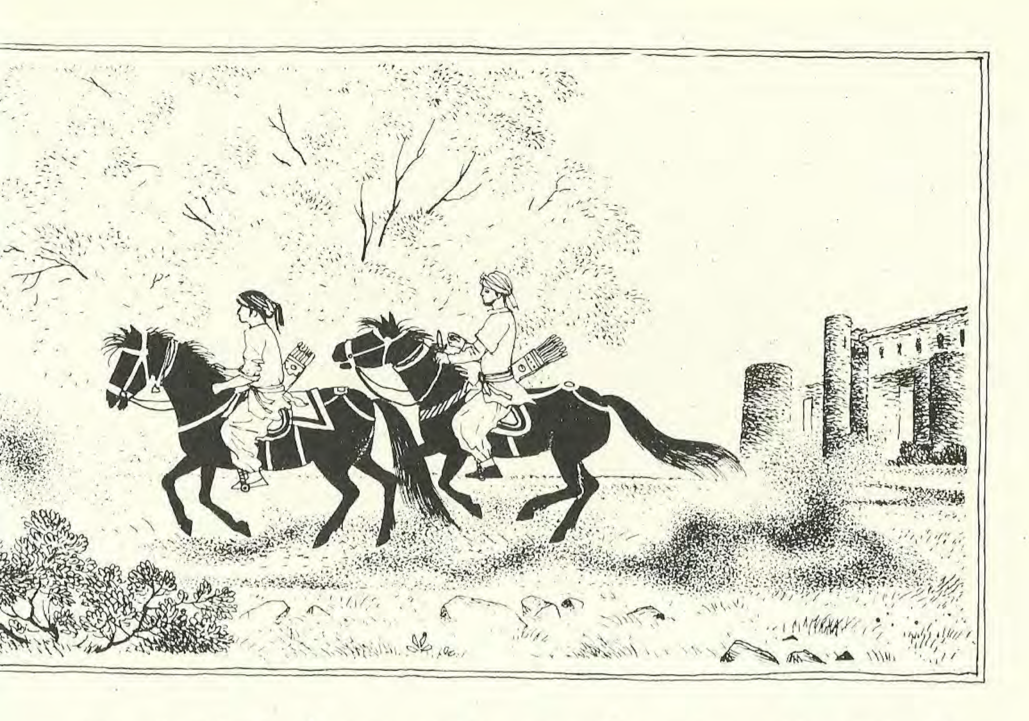
صَحا الجَدُّ مِنْ غَفْوتِهِ وقالَ :

ـ ولَكِنَّ الحالَ لم يكُنْ دائماً على هَذا المِنْوالِ.

ثُمَّ سكتَ بُرهةً وأغْمضَ عَيْنَيهِ فتحوَّلَتْ إليه أنْظارُ الجالِسينَ. فاسْتَرْسَلَ قائلاً :

ـ لاَ، لم تَكُنِ الأرضُ المُحيطَةُ بالقَصرِ دائماً هَكَذا مُجدِبةً ماحِلَةً، ولَم يكُنِ القَصرُ كذلك على هذه الحالِ بِأَسْوارِهِ المُتداعِيَةِ وأبْراجِهِ المُنهارَةِ وأبْوابِهِ المَخْلوعَةِ...





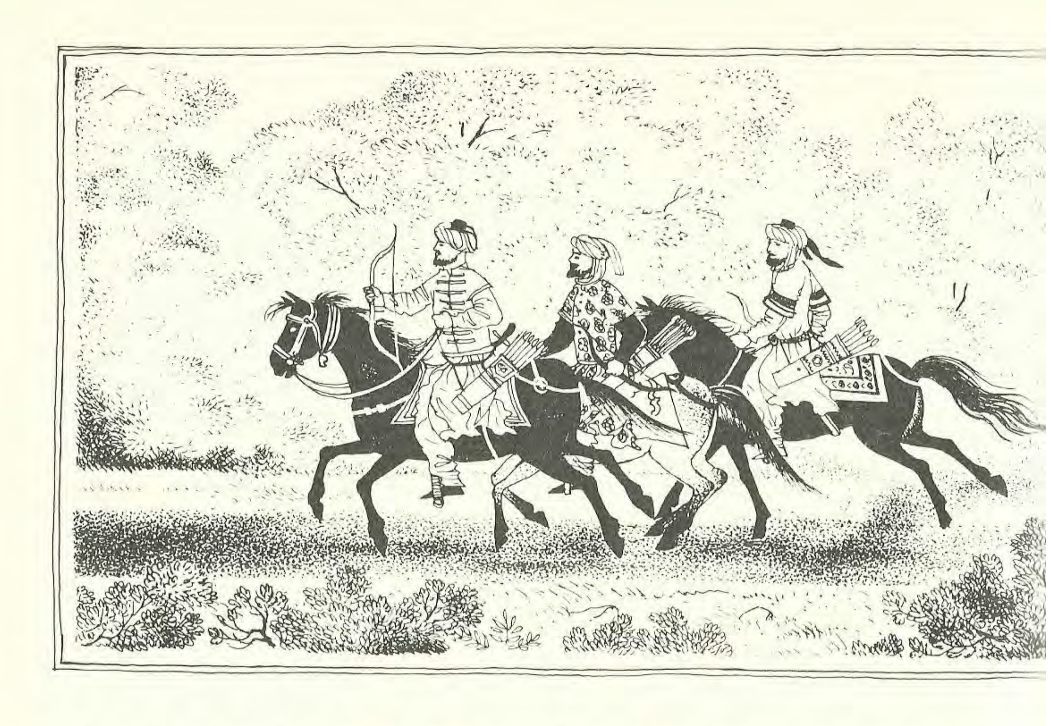
ثُمَّ بدأَ يَرْوي إحْدى حِكاياتِهِ الطَّويلَةِ التي يَمْتَزِجُ فيها الخيالُ بالحَقيقَـةِ والتي كانَ يَتناقَلُها سكَّانُ القَريَةِ من جيل إلى جيلٍ مُنْذُ أَنْ كانَ القصرُ مُزْدَهراً حافِلاً بالحياةِ.

فَحَبسَ سالم أنْفاسَهُ من فرطِ الانْتِباهِ. وقال الجدُّ :

ـ مُنْذُ زمنٍ قديمٍ ، أيْ قَبْل أن يولدَ أجدادُ أجْدادي بِوَقْتٍ طويلٍ ورُمَّا أكثَر من ١٠٠٠ عام، كانَ يسكُنُ القَصرَ أميرٌ عظيمٌ وكانَ يَلجأُ إليهِ طلباً للرَّاحةِ وهَرباً مِنْ ضَجيجِ العاصمَةِ الملقَّبةِ "بغداد المدوَّرة" . وقد وقعَ اخْتيارُهُ على هذه المنطَقةِ لِأنَّ التُّربَةَ فيها كانَتْ في ذلك العصْرِ زكيَّةً خَصبةً.

وكان يَخْترقُ هذه الأراضي "وادي العبيد" الذي نَراهُ اليَوْمَ، ولكنَّكُمْ لَوْ رأَيتُمْ تلكَ المِيَاهَ المُنعِشَةَ الغَزيرَةَ التي كان هذا الوادي يتدفَّقُ بها باسْتِمْرارٍ لَما عَرفتُموهُ.

أمَّا الأرض فكانَتْ سَوْداءَ غنِيَّةً حتَّى سُمِّيَتِ الطريقُ المُؤَدِّيَةُ إلى القَصرِ والتي تَصِلُهُ



بالعاصِمَةِ، بالطريقِ السَّوداءِ، لِسوَادِ تُربَتِها. أتَعْلَمون لماذا سُمِّيَ هَذا القَصرُ بِقَصر الأخيضر؟ سُمِّيَ كذلكَ بِكَثافَةِ الغَاباتِ المُحيطَةِ به كَتاجٍ أخْضَرَ. لَقَدْ كانَتْ هذه المَنْطَقَةُ في الواقعِ مُغطَّاةً بغاباتٍ كَثيفَةٍ باسِقَةِ الأشجارِ وافِرَةِ الظِّلالِ تَكثُرُ فيها الأحْراجُ والأدْغالُ التي كانَتْ تغصُّ بِشَتَّى أنواعِ الحَيَواناتِ كالأيائِلِ والظِّباءِ والثَّعالبِ والخنازيرِ البرِّيَّةِ... وكانَ هذا هُوَ السَّبَبُ الحقيقيُّ الذي دفَعَ الأميرَ إلى القُدومِ إلى هُنا، لَقَدْ كانَ شديدَ الوَلَعِ بالصَّيدِ. وكان يَدعُو الكثيرَ من أصْدِقائِهِ لِمُشاركتِهِ في هِواياتِهِ ومُتْعاتِهِ.

لَقد كانَ هذا البِناءُ الجميلُ المُحَصَّنُ كالقِلاَعِ الرَّحبِ المُزَخْرفِ كالقُصورِ زاخراً دائماً بالحياةِ يَؤُمُّهُ أُناسٌ كثيرونَ. فكانَ يَقْصدُهُ الباعَةُ المتجوِّلونَ في طريقِهِمْ إلى العاصِمَةِ، فيتوقَّفونَ عندَهُ ليبيعُوا أهْلَهُ التَّوابِلَ والأقْمِشَةَ والأوانِيَ الخزفيَّةَ والمراهِمَ والعُطورَ. كما يَمُرُّ بِهِ الموسيقِيُّونَ والرُّواةُ لِلتَّرفيهِ عن ضُيوفِهِ. لقد كان محطَّ أنظارِ النَّاسِ ومَوْضِعَ

رَهبَتِهِمْ كذلكَ لأسْوارِهِ الشَّاهقَةِ.

وكـانَ هَؤُلاءِ الوافِـدونَ ينتَـظرونَ أمـامَ البـوَّابـةِ الرئيسِيَّةِ الكبيرَةِ التي كانَ يَحْميها حَـرسٌ مُسَلَّحونَ. وعنـدما يُـؤْذَنُ لَهُمْ بالدُّخُـولِ، تُدارُ آلَةٌ تَـرفَعُ بـابَيْنِ حدِيدِيَّيْنِ مُتَتابِعَيْنِ، حتَّى شاعَ في ذلك الحين أنَّهُ كـانَ يَقْبَع وراءَ جُدرانِ بُروجِ القَلْعَةِ رُماةٌ مستعدُّونَ لرَميِ السِّهامِ من خِلالِ الشُّقوقِ المُعدَّةِ لهَذِهِ الغايَةِ.







سَكتَ الجَدُّ وأخَذَ يستَعيدُ في ذاكِرتِهِ الحِكاياتِ الكَثيرةَ التي سَمِعَها في الأُمْسِيَّاتِ عن هذا القَصرِ طِيلَةَ حياتِهِ.

وفي سُكونِ المَساءِ، أخذ كلٌّ من الجالسِينَ يُمعِنُ فكرَهُ فِيما قالَهُ الجَدُّ وهو يَنظُرُ إلى السَّماءِ الدَّاكنةِ المُرَصَّعةِ بالنُّجومِ. أمَّا حورية فقَدْ أطلَقَتْ لمُخَيَّلَتِها العنَانَ فرأَتْ فُرساناً مُتَدَثِّرِينَ بعَباءاتٍ بَيْضاءَ، مُمتَطينَ جياداً سَوداءَ أصليةً تَجري على طريقٍ سَوداءَ في طريقِها إلى بغداد، تـارِكينَ وراءَهُمُ القَصْرَ الأمغَـرَ شامخـاً وَسطَ تـاجِـهِ الأخضرِ.

وكـانَ هَؤُلاءِ الفُـرسَان مـا يَزالُونَ تَحْتَ تـأْثيرِ مـا شاهَدُوهُ مِن زَخارِفَ بَديعةٍ منقُوشَةٍ علَى جُدْرانِ القَصرِ الدَّاخليَّةِ والتي كَان يُمَثِّل أغْلَبُها مشاهِدَ الصَّيدِ. وأمَّا حديثُهُم فكانَ يَدورُ حَوْلَ المُساجلاتِ الشِّعْريَّةِ ومُبارياتِ الشّطرنج والحَفلاتِ المُوسيقيَّةِ التي حَضَروها، وكانوا لا يملُّونَ أبداً من ذِكرِ حفلاَتِ الصَّيدِ والقَنصِ المثيرَةِ التي







اشْتَرَكوا فيها بِحَماسٍ . وتساءَلَتْ حورية :

ـ أيُمكنُ أن يَكُـونَ هـذا الدَّربُ الطَّويـلُ الذي تَعلوهُ الحِجارَةُ وتغطِّيهِ الرِّمالُ والأَتْربةُ والذي يمُرُّ بِقُربِ القَصرِ ثُمَّ يتوغَّلُ لِيَتـلاشَى في الوادي هُو نَفْسـه الطريقُ الذي وَصفَهُ الجَدُّ ؟

وفجْأةً تَشتَّتَتْ أحلامُ الجالِسينَ عِند سمَاعِ صَوتِ سالم وهو يسأَلُ بِخَجلٍ :

ـ هَـلْ كانَتْ هُنـاك أُسـودٌ تَعيشُ حَـولَ القَصرِ في ذلك الزَّمنِ ؟ أسودٌ لَها آذان قصيرَةٌ وأنياب مُخيفَةٌ ؟ فضَحِك الجالسُونَ من هذا السُّؤالِ وقالوا مُتَعَجِّبينَ :

ـ أسودٌ في المَنطْقةِ ! أتمْزحُ يا سالم ؟ يا لها من فكرَةٍ !

بُوغِتَ الجَدُّ بهذا السُّؤالِ ، واكتَفَى بالابْتِسامِ ولم يُجِبْ لتوِّهِ، وإنَّما أخَذَ يُفتِّشُ في ذاكِرَتِهِ مُتَسائلاً : ألم يكُنْ يذكرُ جدُّهُ في بَعْضِ الأساطيرِ المُـرْعبَةِ التي كـانَ يَروِيها بأنَّ الأُسودَ كانَتْ تَفتِكُ بالفَلَّاحـينَ ؟ ألا تُعْتَبرُ الأساطيرُ مِرآةً تعكِسُ الواقـعَ الزَّائلَ ؟ ألَم يكُنْ يُـذكَرُ أيضاً بأنَّ الأميرَكان يَملكُ زَوجاً من الأسودِ الأليفَةِ التي كانَتْ تُرابِضُ بَيْنَ بَوَّابتَيْ القَصرِ الحديديَّتَيْنِ لِحراسَـةِ القَصرِ ؟ ثُمَّ أجابَ بِتردُّدٍ :

ـ رُبَّما... مِنَ الجائـزِ أن كانتِ الأسـودُ تعيشُ في ذلك الزَّمنِ القديمِ في قَلْبِ الغاباتِ المُحيطَةِ بالقَصرِ.

وانْحَنى على سالم يُداعبُ خدَّهُ ثُمَّ قامَ وسلَّمَ على أهْلِهِ وضُيوفِهِ وذَهَبَ ليَأْوَى إلى فِراشِهِ.



عُلَمَاءُ الآثَارِ

وفي اليَوْمِ التَّالي صادَفَ سالم وهو في طريقِهِ إلى المَدرسةِ رَجُلًا عجيباً تَلْتَفِتُ على طريقِهِ الرُّؤوسُ وتلاحقُهُ النَّظَراتُ. إنَّهُ غريبٌ عنِ القَريَةِ وغَريبُ الهَيْأَةِ كذلكَ : فَقَد كان شابًّا بشوشَ الوَجهِ ذا أنفٍ دقيقٍ تعلُوهُ نَظَّاراتٌ ذاتُ إطارٍ مَعدنِيٍّ، ولِيحيَةٍ سَوداءَ كثَّةٍ يَمشي مَرفوعَ الرَّأسِ ويرتَدي سِرْوَالًا عريضاً منَ الكتّانِ وقميصاً مُهَلْهلًا رثًّا. وأمَّا مِهنَتُهُ فكانَتْ بيِّنَةً جليَّةً من عُدَّةِ التَّصويرِ الكاملَةِ التي كانَ يَحمِلُها على كَتفَيْهِ.

رَكَضَ سالم نَحْوَ رفاقِهِ وأخذَ الجميعُ يَتحدَّثونَ في آنٍ واحدٍ :

ـ هَل لَمحتَهُ ؟ مَنْ هو ؟ ماذا يَفْعَلُ هُنا ؟ إنَّ هَيئَتَهُ لَمُضحِكَةٌ أليسَ كذلكَ ؟

فقال أكبرُهُمْ سِنّاً يُطلِعُهُمْ على ما جَمَعَهُ من مَعْلوماتٍ في هذا الصَّددِ :

ـ لم يأتِ هُنا لوَحدِهِ بَلْ وصلَ معَهُ أشْخاصُ آخرُونَ منَ العاصمَةِ بغداد وَهُمْ ذاهبونَ جميعاً إلى الأخيضر، ويُقالُ إنَّهُمْ علماءُ آثار، يا لطَرافَةِ الاسْمِ !

ثُمَّ شاعَ في القَرْيَةِ خَبَرُ مَجيءِ هؤُلاءِ الذين سَيُباشرونَ التَّنْقيباتِ في قَصْرِ الأخيضر التي تمَّ البدءُ فيها منذُ أمدٍ بعيدٍ. فسأَل سالم حورية :

ـ ما مَعْنَى كَلمة تَنقيبٍ ؟ فأجابَتْ :

ـ تعني نَبْشَ الأرضِ وحفْرَها، وفَحْصَ الجُدرانِ، وفَرْزَ البقايا لمعرفَةِ مُخطَّطِ القَصرِ، ورُبَّما العُثورَ على الأشْياءِ التي كانَ يَسْتَخْدِمُها أو يَسْتَعْمِلُها سكَّانُهُ. وأضافَتْ قائلَةً :

ـ أتَعتَقِدُ بأنَّهُمْ سيَعْثرونَ على أسَدِكَ ؟ فأجابَ سالم بلَهْجَةٍ غَير مطمَئِنَّةٍ :

ـ لا أظُنُّ ذلكَ، لَقَدْ أَخْفيتُهُ بعنايةٍ. على أيَّةِ حالٍ لماذا يكونُ الأسدُ مِن حقِّهِمْ هُمْ ولَيْسَ من حقِّي، أنا الذي عَثَرْتُ عليهِ ونظَّفتُهُ ؟

وبدَأَ الغَضَبُ يتملَّكُهُ لمُجَرَّدِ التَّفكيرِ في احْتِمالِ وُقوعِ أسدِهِ بَيْنَ أيديهِمْ.

كانَ حَديثُ جميعِ سُكَّانِ القَريةِ في الأيَّام التَّاليةِ، وخُصوصاً في المَدْرسَةِ، يدورُ حَوْلَ عُلَماءِ الآثارِ. وكانَ المُعلِّمُ قد شرَحَ أنَّ عالِمَ الآثارِ هو العالمُ الذي يَنْصرِفُ إلى دِراسَةِ تاريخِ الأزْمِنةِ الغابِرَةِ القديمةِ بِصَبرٍ لمدَّةِ سِنينَ طويلةٍ، وهو يحاوِلُ العُثورَ على آثارِ الحَضاراتِ القديمَةِ في "مواقعِها" مُستَعيناً بالوثائقِ التي انتقَلَتْ إلَينا على مرِّ العصورِ، ويَقومُ لذلكَ بِحَفْريَّاتٍ في المكانِ الذي يفترضُ أنَّ الإنسانَ كانَ يعيشُ فيه في الأَزْمنةِ الغابِرَةِ.

وكثيرًا ما كانَ المعلِّمُ، الذي كانَ شغوفًا بتاريخِ المَنْطقةِ ومهتمًّا بالتَّالي بِنتائجِ الحَفريَّاتِ، يَجْتَمِعُ بِهؤلاءِ العُلَماءِ. وكانُوا يَتحدَّثونَ طويلاً عن أَصلِ القصرِ ويُقارنونَ بَيْنَ مُخْتلفِ

الوثائقِ التي ذَكرتْ وجودَهُ. كم رآه القَرَويُّونَ يطوفُ بأَنحاءِ القَرْيَةِ مع مراد المُصَوِّرِ ليُطْلِعَهُ على معالِمِها. وقَدْ جاذَبَ المصوِّرُ خلالَ هذه الزِّيارةِ القرويِّينَ أطراف الحديثِ بِوَدٍّ وأصْغى إلى أقوالِهِمْ باهْتِمامٍ.

وعِند الرُّجوعِ إلى المَدرسةِ كانَ المعلِّم يُخبِرُ تـلاميذَهُ بِمـدى التقدُّمِ الذي أحـرَزَتْهُ الحفريَّاتُ ويحدِّثُهُم بالتَّفصيلِ عن آخرِ الاكْتِشافاتِ التي أنجَزَها علماءُ الآثارِ.

وذاتَ يَومٍ قالَ لَهُمْ :

ـ يَبْدو أنَّ القَصرَ كان يَضمُّ مسجِداً يفصِلُهُ عن أجْنحةِ السَّكن رِواقٌ طويلٌ، وقَدِ انسَدَّ هذا الرِّواقُ بِفعلِ الرُّكامِ المُتجمِّعِ فَوْقَهُ والذي تَمَّ البَدءُ بإزالَتِهِ ممَّا قَد يُمهِّدُ لاكْتِشافاتٍ جديدةٍ مُهمَّةٍ. وإليكُمْ هذا النَّبأَ السَّارَّ : لقَدْ دُعِينَا لزِيارةِ مَوْقعِ الحَفريَّاتِ في الأسبوعِ القادِمِ.

وعلى إثرِ هذا النَّبإِ ضجَّ الصَّفُّ بِصيحاتِ الفَرَحِ ولَم يكُنْ بِوُسعِ المعلِّمِ غير أن يصرِفَ تَلاميذَهُ إلى ساحَةِ المَدرسةِ إذْ أنَّهُم كانوا في حالةٍ منَ الإثارةِ أصبَـحَ معَها الاستمـرارُ بالدَّرسِ مُسْتحيلاً.

وقَبْلَ أن يَسمحَ لَهُمْ بالانصِرافِ قالَ لَهُمْ :

ـ سَوْفَ نُسافرُ يَوْمَ الخميسِ القادِمِ بِواسطَةِ الأوتوبيس. ولِكَيْ يكُونَ لَدينا متَّسعٌ مِنَ الوقتِ لزِيارةِ مَوقعِ الحَفريَّاتِ والاسْتماعِ لِشُروحِ عُلَماءِ الآثارِ سَنَقضي لَيْلَتَنا هُناكَ. لقَدْ وعَدَنا فَريقُ عُلماءِ الآثارِ بإعارَتِنا بَعْضَ الخِيامِ وسنَأخُذُ كُلَّ ما يَلزَمُنا مِنْ حاجاتِ السَّفرِ وسَنَعودُ مساءَ الجُمعةِ.

إنَّ فِكرةَ الرَّحيلِ والرُّكوبِ بالأوتوبيس والنَّومِ في الخِيامِ ومُقابلَةِ عُلماءِ الآثارِ، كُلّ هذه الأمورِ مَلأَتْ قُلوبَ هَؤلاءِ الأطفالِ بِحماسٍ صاخِبٍ سُـرعان مـا عَلِمَ به أهـلُ القَريَـةِ فَشارَكوهُمْ فرحتَهُمْ.

أمَّا سالم فَلَمْ تكُنْ عِنْدَهُ حَماسَةُ رِفاقِهِ وغَبطَتُهُمْ لأنَّهُ لم يَتَمكَّنْ منَ الرُّجوعِ إلى القصرِ مُنْذُ تلك المُغامرةِ اللَّيليَّةِ فَهو شديدُ القَلَقِ على أسدِهِ الصَّغيرِ. لكنَّهُ لَم يَفقدِ الأملَ وسَيغْتَنمُ فُرصَة هذه الزِّيارةِ لكَيْ يَستَرِدَّهُ خِفْيَةً...



موقِعُ الحَفرِيَّاتِ

بَعْدَ سَفْرَةٍ مُمْتِعةٍ بالأوتوبيس عبْرَ الصَّحراءِ وصلَ المُعلِّمُ وتلاميذُهُ قَبْلَ المَوْعدِ إلى موقعِ الحفريَّاتِ. وأَخَذوا يُراقبونَ بِهُدوءٍ في بادِئِ الأمرِ عُلماءَ الآثارِ ورجالَ القَريَةِ وهُمْ يَقومونَ بعَمَلِهِمْ، يُزيلونَ الرُّكامَ بِعنايةٍ، ويتَفحَّصونَ الجُدرانَ ويَرسمونَ المُخَطَّطاتِ، ويَجْمَعونَ كافَّةَ الدَّلائِلِ التي تَسمحُ لَهُمْ بِتَحديدِ شكلِ أقسامِ القَصرِ المُخْتلفَةِ ونظامِها، ليتمكَّنوا منْ تَرميمِهِ بِصورةٍ مطابقَةٍ قدرَ الإمكانِ لما كانَ علَيهِ قَبْلَ اثنَيْ عشر قَرنًا. وكان المصوِّرُ حاضراً هُو الآخَر يَقومُ بالْتقاطِ المشاهِدِ الشاملَةِ للقَصرِ، كما يصوِّرُ القِطَعَ والرُّسومَ الجداريَّةَ في المكانِ الذي يُعثَرُ فيه عليها. وهذا أمرٌ مُهمٌّ جدًّا لِشَرحِ ما كانَتْ تُمثِّلُهُ أو الغَرض مِنَ استِعْمالِها فيما بَعْدُ.

احْتارَ سالم في أمرِهِ، ولَم يَدْرِ كَيْفَ سَيَتمكَّنُ منَ التَّواري عنِ الأنْظارِ لإخراجِ الأسدِ من مَخبَئِه ؟

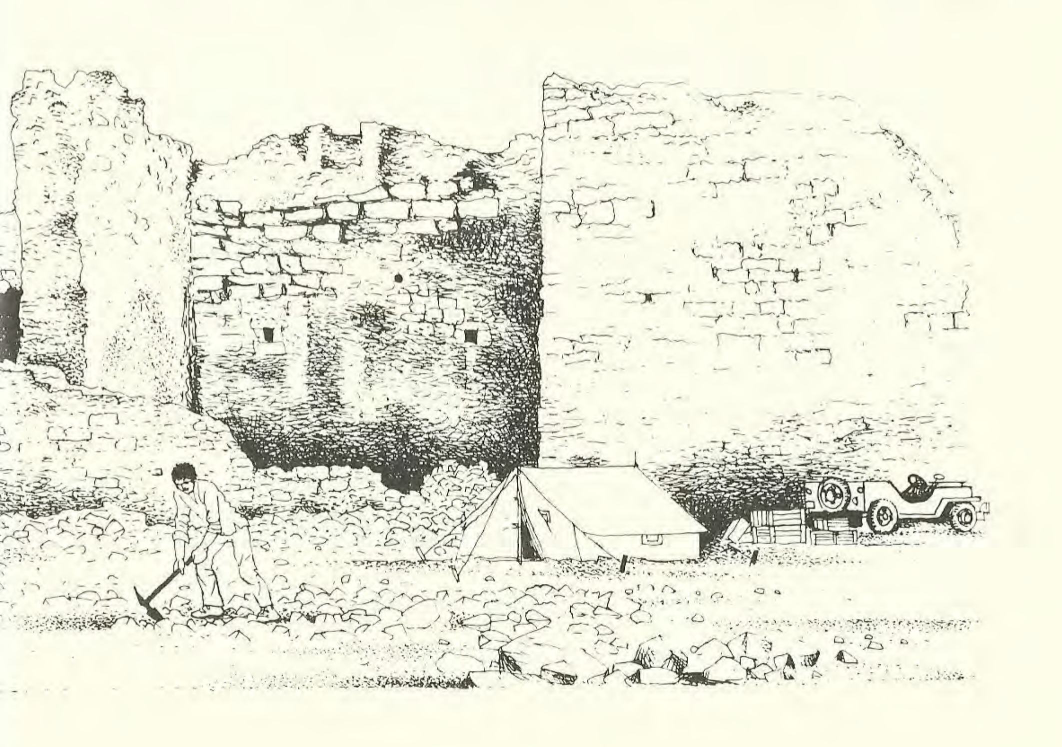
وبَيْنَما كانَ المعلِّمُ يَتَجاذَبُ أطرافَ الحَديثِ مع القَرَوِيِّينَ وعُلماءِ الآثارِ، أخذَ الأطفالُ يتهامَسُونَ قائلينَ :

ـ كانَ سالم قَد عَثَرَ خلالَ مَوْسمِ الرَّعْيِ الأخيرِ على تِمْثالٍ خَزَفِيٍّ صغيرٍ يُمَثِّلُ أسداً، وقَدْ خبَّأَهُ تحتَ الدَّرجِ. واليومَ يُنَقِّبُ هَؤلاء الرِّجالُ في المكانِ الذي خَبَّأَ سالم فيه أسدَهُ. هَيّا، نُحاوِلُ العثُورَ عليه قَبْلَ أنْ يَسْبقُونا إليه.

وما لَبثَ الخبرُ أن وصلَ إلى آذانِ جميعِ الأطفالِ فأخذوا يَبْحَثونَ عَنْهُ متظاهِرينَ بِأَنَّهُمْ يساعدونَ في العَمَلِ...

ومرَّ بَعْضُ الوقتِ، ولَمْ يكُنْ يُسمعُ في مكانِ الحفريَّاتِ إلَّا ضرباتُ المَعاولِ، وكَشطُ المَجَارِفِ، وضَجيجُ عجلاتِ اليَدِ، وحَركَةُ الفَراشي، واحتكاكُ السَّكاكينِ، وقَرقَعَةُ السُّطولِ. وكان الجميعُ مُنهَمكينَ في العَمَلِ بِكلِّ حذرٍ لئلَّا يُتلفُوا ما حَفِظَهُ الدَّهرُ إلى يَومِنا هذا.

وانضَمَّ أحدُ عُلماءِ الآثارِ إلى فريقِ الأطفالِ، وكان هَؤُلاءِ يَخشونَ كَفاءَتَهُ وبراعَتَهُ في العَملِ... وكان خَوفُهُمْ في محلِّهِ، إذْ مالَبثَ هذا الخَبيرُ أنِ انْتصبَ واقفاً واتَّجَهَتْ عشرَاتُ الأنظارِ المتلَهِّفَةِ إلى ما كانَ يَحمِلُهُ بَيْنَ راحَتَيْ يَدَيْهِ، وأيقَنَ الأطفالُ بأنَّهُمْ خَسِرُوا الجَولَةَ: لقَدْ كانَ الأسَدُ الصَّغيرُ يَرقدُ بَيْنَ يَدَيْهِ. هَتَفَ الخبيرُ بغبطَةٍ، فَهرَعَ إليه زُملاؤُهُ، والمُعلِّمُ،



والقَروِيّون وحاصَروهُ من كلِّ جانبٍ. وكان الجَميعُ في حالةٍ منَ الانفِعال والفَرَحِ أخَذوا مَعَها يتحَدَّثونَ بِصَخبٍ وفي آنٍ واحدٍ.

ثُمَّ تَوجَّهَ الخبيرُ إلى القَروِيِّينَ شارحاً:

- إنِّي متأكِّدٌ بأنها لُقْيةٌ جَميلةٌ.

ولكنَّ القَروِيِّينَ لَم يَرَوْا فيها إلَّا شَيئًا قَذِرًا تُغلِّفُهُ الأترِبَةُ. وكان عالمُ الآثارِ حائراً ضعيا أمامَ هذا الأسدِ الذي أُزيلَ عَنْهُ بَعْضُ الطِّينِ الذي كانَ يفترِضُ أن يغطِّيَهُ كُلِّيًّا.

وبَينما أسرَعَ المصوِّرُ لِالْتقاطِ الصُّوَرِ، ابتَعَدَ الأطفالُ فأَتْرى الحَماسُ عَنِ الجَميعِ بَعْضَ الشَّيءِ. ولاحظَ المعلِّمُ الخيبَةَ التي عَلَتْ وُجوهَهُمْ. وأمَّا سالم فَقَدِ انزَوى وراءَ أحدِ الأعْمدَةِ وأجْهَشَ بالبُكاءِ.



لَيلَةٌ بَيْنَ أطْلالِ القَصرِ

كانَ النَّهارُ على مشَارِفِ الانتهاءِ بَينَما كانَ على التَّلاميذِ التَّفْكيرُ والمُشارَكَةُ في نَصبِ الخِيامِ وإيقادِ النَّارِ وتحضيرِ العشَاءِ. هذه الاهتماماتُ أنْسَتْهُمْ خَيبَتَهُمْ وجلَسوا بابْتِهاجٍ وسُرورٍ



حَوْلَ النَّار يتحادَثُون ويُغنّونَ ويَستَجْوِبُونَ علماءَ الآثارِ الذين انضَمُّوا إلى مَجلسِهِمْ. كان اللَّيلُ قَدِ انْقَضى شَطْرٌ كبيرٌ مِنْه حينَ توجَّهَ الجَميعُ نَحْوَ الخيامِ للنَّومِ.

وبَعْدَ بُرهَةٍ وجيزَةٍ كان الصَّمتُ مُطَبَّقاً على المكانِ، فَقَدْ نامَ الجَميعُ في الحالِ بِمُجرَّدِ أن اسْتَلْقوا على الفراشِ، بِسَبَبِ تَعَبِهِم النَّاجِمِ عَن نهوضٍ مُبكّرٍ ونهَارٍ مُفعَمٍ بالنَّشاطِ. حينَ ذاك انتَهَزَ سالم واثنَانِ من رِفاقِهِ هذه الفُرصَةَ وتسلَّلوا كالأشْباحِ بكُلِّ هُدوءٍ منَ المُخَيَّمِ واتَّجهوا صَوْبَ مَوقَعِ الحَفرِيَّاتِ مُصمِّمينَ على اسْتِرْدادِ الأسَدِ.

ثُمَّ اتَّجَهُوا معاً صَوبَ القَصرِ الذي كانَ يَغمرُهُ ضَوءُ القَمَرِ. وما إن دَخَلُوا من شقٍّ في سُورِهِ حتَّى تَسمَّروا في أماكنِهِمْ: ففي ضَوءِ مِصباحٍ نَفطيٍّ رأَوا رَجُلَيْنِ يَجلسانِ القَرْفَصاءَ وقَدْ أدارَا لَهُمْ ظَهرَيْهِما. وتَبيَّنَ للأطْفالِ أنَّهما عالمُ الآثارِ والمصوِّرُ اللذانِ كانا يتفَحَّصانِ بانْتِباهٍ شديدٍ جُزءًا منَ الحائطِ حَيثُ كانَتْ تَتَلألأُ فيه هُنا وهُناكَ قِطَعٌ منَ الآجُرِّ المُزَجَّجِ، مَصفُوفَةٌ بانتظامٍ حَولَ طَاقٍ يُؤَدِّي إلى رِواقٍ طَويلٍ.

وعندما وقفَ الرَّجُلانِ، لَمَحَ الأطفالُ الأسدَ الصّغيرَ بِقُربِهما وقد تخلَّصَ منَ الطِّينِ والتُّرابِ وظهرَتْ طَبَقَةُ الميناءِ الأزرَقِ الرائعَةُ التي تُغلِّفُهُ وقد خُطَّتْ مَلامِحُهُ باللَّونِ الأسودِ عندَ لُبدَتِهِ وعَيْنَيْهِ وشدقهِ.

بُهِرَ سالم برَوعةِ مَنظرِهِ حتّى أنَّه لم يأْبَهْ لأصْدقائِهِ الذينَ ابتَعَدوا بَعْدَ أنْ أيقَنوا بأنَّ مُحاولَتَهُمْ باءَتْ بالفَشَلِ للْمَرَّةِ الثَّانيةِ. فاخْتَبأَ وراءَ كَومٍ منَ الحجارةِ وعَيناهُ مُثبَّتَتانِ على الأسدِ لا تُفارِقانِهِ لَحْظَةً، وقَدْ عقدَ العَزمَ على أنْ يستَرِدَّهُ حالمَا يَنصرِفُ الرَّجُلانِ.

وبدا لسالم أنَّ الوقْتَ يَمرُّ بِبُطءٍ تَحْتَ أشِعَّةِ القَمرِ البارِدَةِ التي غمرَتْ معالمَ هذا البِناءِ القديمِ. فَتقَوْقَعَ في مكانِهِ وأغمضَ جَفنَيْهِ المُثَقَّلَيْنِ بالغُبارِ والنُّعاس.

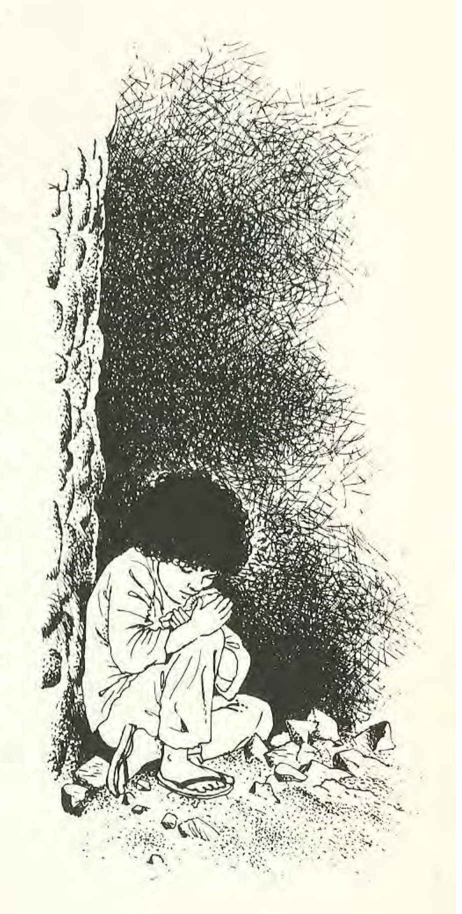
ومرَّ الوقتُ، بعدَ أنْ تَناولَ الزَّميلاَنِ الصَّديقانِ كوبًا أخيراً منَ الشَّايِ وهُما يعلِّقانِ على المُكتَشفاتِ تَحتَ قُبَّةِ السَّماءِ المرصَّعةِ بالنُّجومِ ، تَأهَّبا للانْصرافِ من مَوقعِ الحفريَّاتِ إلى حَيثُ أقاموا مُخيَّماتِهِمْ على مقربةٍ مِنها، وإذْ بعالمِ الآثارِ يُرهِفُ السَّمعَ ويقُولُ هَامِساً :

ـ ألَم تَسمَع شَيئاً ؟

وإذا بِجَلبةٍ مُريبَـةٍ اسْتَرعَتْ انْتِبـاهَهُما عن مَـوقعِ المَسجدِ، فاتَّجها بِسُرعةٍ إلى مَصدرِ الصَّـوت وإذ بِهما يضْبطَانِ الأطفالَ الآخَرين وهُمْ يَرتَعشـونَ خَوفـاً وقَدِ الْتَصقـوا بأحـدِ الجُدرانِ آملينَ، ولا شَـكّ، أن يَنْشَقَّ ويَبتَلعَهُمْ.

ابتَسمَ المصوِّرُ بحنانٍ في حينِ تَمَلَّكَ عالمَ الآثارِ غضبٌ شديدٌ. فقد كَان يَعلَمُ تماماً ما تتعرَّضُ لهُ المواقعُ الأثريَّةُ من أعمـالِ السَّلبِ والنَّهبِ، سَواء من جـانِبِ أطفالٍ يَلعَبونَ دَوْرَ المُكتَشفينَ أو منْ جَانبِ أشْخاصٍ يأملُونَ في العُثُورِ على تُحَفٍ ثمينَةٍ يَبيعُونَها بأبهَظِ الأثمانِ للسّياحِ وهُواةِ جَمعِ التُّحفِ. فأمرَ الأطفالَ بالعودةِ إلى بُيُوتِهِمْ بسُرعةٍ وهدَّدَهُمْ بأنَّهُ سَيَشكوهُمْ لِمُعَلّمهِمْ إذا ما وجَدَهُمْ ثانيَةً في داخلِ مَوقَعِ الحفريَّاتِ دُونَ إذنٍ خاصٍّ وخاصَّةً في مِثْلِ هذه السَّاعةِ المُتأخِّرةِ.

فأطلَقَ الأطفالُ، بِـلا تردُّدٍ، سـوقَهُمْ للرِّيحِ . وقـدَّرَ



الرَّجُلانِ أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ إحاطَةِ مَوقعِ الحفرِيَّاتِ بِسُورٍ لِحِمايَتِها.

كان عالِمُ الآثارِ مُتعباً فتَوجَّهَ إلى خَيمتِهِ طَلباً للرَّاحةِ، بَينما تلكَّأ المصوِّرُ ليَتَأمَّلَ تِلك الأنقاضَ المُحمَّلَةَ بالأسْرارِ، السَّابِحة في ضَوءِ القَمرِ.

وقَبْلَ أنْ يَنصرِفَ بدَورِهِ أرادَ أنْ يتأمَّلَ مرَّةً أُخرى الأسَدَ الرَّائعَ المطليَّ بالمينَاءِ الأزرَقِ تَحْتَ الطَّاقِ حَيثُ وضَعَاهُ.



وكَمْ كانَتْ دَهشَتُهُ بالغَةً عِندما رَأى في المكانِ طِفلاً صغيراً مُستَنداً إلى إحدى دعائِمِ الطَّاقِ يغطُّ في نَومٍ عميقٍ، وقد ضَمَّ إلى صَدرِهِ الأسدَ الصَّغيرَ بِحنانٍ.

وفَتَحَ سالم عينَيْنِ تملَّكَهُما النّعاسُ فَوقَعَ بَصَرُهُ على سَاقَيْنِ طويلَتَيْنِ مُنتَعلَتَيْنِ حذاءً ضَخماً. نظرَ سالم إلى صاحِبِها بعَينَيْنِ مذعورَتَيْنِ وضمَّ أسدَهُ إلى صَدْرِه بقُوَّةٍ. فَجلَس المُصوِّرُ القَرفصاءَ أمامَهُ وبدَأَ يستَجْوِبُهُ بلُطفٍ.

وعندما اطمَأنَّ سالم إليه بَعض الشَّيْءِ، رَوَى قصّتهُ من أوَّلِها وقدِ اغْرَوْرَقَتْ عَيناهُ بالدُّموعِ. وأنهى سالم قصّتَهُ مُؤَكِّداً بقُوَّةٍ:

ـ إنَّه أسدي أنا ولاَ يَحِقُّ لَكُمْ أن تَأْخذوهُ.

فابتَسَمَ المُصوِّرُ في سرِّهِ وقد غَمرَهُ نَحو هذا الطِّفلِ وحُزنِهِ فَيضٌ منَ الحَنانِ، ثُمَّ شَرَعَ يشْرَحُ لهُ برِفقٍ :

ـ أتَعلمُ أنَّ هذه القطَعَ هيَ شَواهدُ على المَاضي، وأنَّها ثَمينَةٌ جِدًّا إذْ تَسمحُ للْعُلماءِ بِتَصوُّرِ تاريخِ الإنسانِ مُنْذُ الزَّمنِ الذي بدَأَ فيه يَصنَعُ الأدواتِ ويُغطِّي جُدرانَ مغارتِهِ بالرُّسومِ ويَعيشُ في جماعاتٍ. فهذهِ القِطَعُ لَيْسَتْ مُلكاً لأحدٍ بَلْ هيَ مُلكُ الجَميعِ.

وعندما يَفرغُ خُبراءُ الآثارِ من دراسَتِها في المَخَابِرِ، تُعـرَضُ في أبْنيَةٍ كَبيـرةٍ تُسمَّى المَتاحِفَ حَيثُ يَستَطيعُ كلُّ مَنْ يَهتَمُّ بِها أن يتأمَّلَها ليُعرفَ اسمُ الشَّعبِ الذي صَنَعَها وفي أيِّ عصرٍ صُنعَتْ. أفَهمتَ الآنَ ؟

كَفْكَفَ سالم دُموعَهُ وفاضَ قَلبُهُ بالثِّقةِ نَحوَ هذا الرَّجلِ الذي لا يهَدِّدُ ولا يَتَوَعَّدُ بَل يشرَحُ بصَبرٍ وأناةٍ كلَّ هذه الأمورِ. وسألهُ بصَوتٍ خَجولٍ :

ـ هَل أستَطيعُ أنا أيضاً أنْ أرى أسَدي في يَومٍ من الأيَّامِ في أحَدِ المَتاحِفِ ؟

فأجابَ المُصوِّرُ بِلَهْجَةٍ جادَّةٍ :

ـ إنِّي أعِدُكَ بِهذا، وسَوفَ آتي لاصْطحابِكَ إلى العاصِمةِ بعدَ أنْ يُفضِيَ أسَدُكَ بكُلِّ أسرارِهِ وبَعدَ إيداعهِ في مكانِ الشَّرَفِ الذي يستَحِقُّهُ في أحدِ المتاحِفِ.

فأخَذَ بِيَدِ سالم ورافقَهُ حتَّى المخَيَّمِ حيثُ لَم يَتَحَسَّسْ أحدٌ غِيابَهُ.

وهَكذا انتَهَتِ المُغامرةُ اللَّيليَّةُ.



الدَّعْوَةُ

في اليومِ التَّالي حضَرَ التَّلاميذُ مع مُعلِّمِهِمْ إلى مَوقعِ الحَفريَّاتِ وهُمْ يَجدُونَ في هـذا العملِ مُتعةً تفوقُ تلك التي كَانُوا يَجِدونَها سابقًا في اللَّعبِ بَيْنَ الأطلالِ.

ولم يَعُدْ سالم يحسُّ بالغُربةِ في هذا المكانِ، وقلّما كانَ يُفارِق صديقَهُ المُصَوِّرَ. وكَمْ كانَ يودُّ لَو جاءَ جَدُّهُ أيضاً لزِيارةِ مَوقعِ الحفريَّاتِ والاستمْتاعِ بمُشاهدةِ بعضِ أقسامِ القَصرِ التي أُزيلَتْ عَنها الأنقاضُ ولرُبَّما ستُلْهمُهُ أحاديثُ أُخرى شَيِّقةٌ. وكانَ سالم واثقًا منْ أن حكاياتِ جَدِّهِ ستُفيدُ عُلماءَ الآثارِ. لذا قرَّر بَعْدَ أن جَمَعَ كلَّ مَايَمتَلِكُ من شَجاعةٍ دَعْوَةَ مراد وأصدِقائِهِ لقَضَاءِ أُمسيَّةٍ في بَيتِهِ للتَّعرُّفِ على والدَيْهِ وجَدِّهِ الذي يعرفُ منَ الأشْياءِ الكَثيرَ. وقَدْ أثَّرَتْ في مراد ثِقَةُ الطِّفلِ به بحيْثُ قَبِلَ دَعوتَهُ في الحالِ وتمَّ تَحديدُ مَوعدٍ في الأُسبوعِ التَّالي.

لقَدِ انقَضى النَّهارُ بسُرعةٍ فائقَةٍ وباتَ علَيهِمُ الرُّجوعُ للْقَريةِ مِنْ نفسِ الطَّريقِ الذي جاؤُوا منهُ فالتَّلاميذُ مُنهكونَ وقَدِ اعْتلاَهُمُ الغُبارُ ولكنَّهُمْ فرحونَ وقد نامَ البَعْضُ مِنْهُمْ أثناءَ الرِّحلةِ.

بَدَأ سالم بَعْدَ وصُولهِ يَروِي لعائلَتِـهِ المُجْتَمعةِ في الدَّار أحـداثَ اليَومَـيْنِ الأخيرَيْنِ، فانهالَتْ عليه الأسئِلَةُ لَا سِيَّما تِلك التي تَتَعلَّقُ بالأسدِ الصَّغيرِ، فسألهُ الأوَّلُ :

ـ "كيف كَانَ لَوْنُهُ ؟"

وسألهُ آخرُ :

- و "ما هو حَجمُهُ ؟"

ثُمَّ قَالتْ أُختُهُ حورية :

- "لماذا لَم تَجلِبْهُ مَعَكَ حِينَ عَثرتَ عليه في المرَّةِ الأولى ؟"

فَشَرَعَ سالم يَنقلُ لَها إيضاحاتِ المُصوِّرِ حَولَ أهمِّيَّةِ القِطعِ الأثريَّةِ وحَولَ ضَرورةِ بَقائِها مُلكاً للجَميعِ . ثُمَّ توجَّه بالكلامِ إلى جَدِّهِ :

قال سالم :

- يا جدِّي لَقَدْ بادَرتُ بدَعوَةِ فريقِ عُلماءِ الآثارِ للمجِيءِ إلى دارِنا في الأسبوعِ القادمِ وسَوفَ يَسُرُّهُمْ ما سيَسْمَعُونَ من حكاياتِكَ عَنْ قَصرِ الأخيضرِ، فَهَلْ يُرضيكَ ما فَعلْتُ ؟".

فابْتَسمَ جدُّهُ قائلاً :

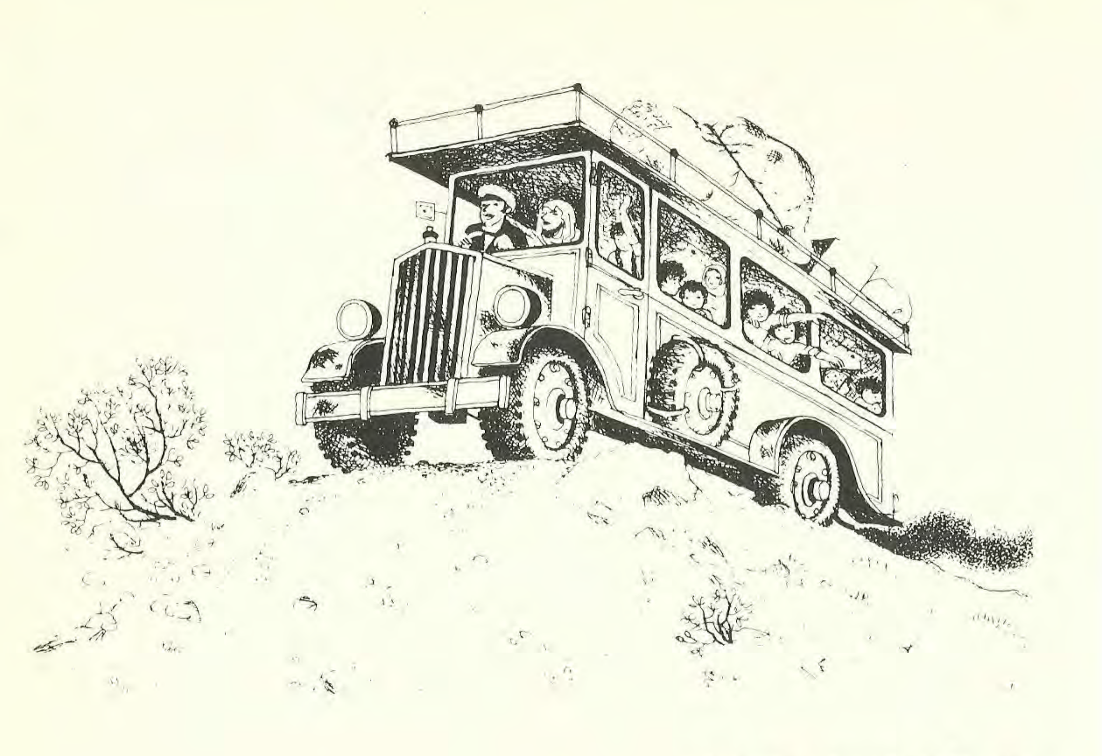
- "سَنَكونُ سُعداءَ باسْتقْبالِهِمْ".

مرَّتِ الأيَّامُ وحلَّتِ الأمسيَّةُ المَنشودَةُ التي كانَ ينتظرُها سالم بفارغِ الصَّبرِ وقد حَضَرَ الجَميعُ : المصوِّرُ، علماءُ الآثارِ وبَعضُ أهالي القَريَةِ الذينَ يعملُونَ في مَوقعِ الحفريَّاتِ لعدَّةِ أشهُرٍ كَما حَضَرَ أقاربُ سالم وجيرانُهُ. كَانَ الجميعُ يحيطونَ بالشَّيخِ في فناءِ الدَّارِ ويَستَمعونَ لهُ بِلهفَةٍ وهُو يَروي لَهُمْ الحكاياتِ التي تَناقَلَتْها أجيالٌ مُتعاقِبةٌ عَبرَ العُصورِ.

لقَدْ كانَ عُلماءُ الآثارِ يُنصتُونَ إليه باهْتمامٍ بالغٍ عَلَّهُمْ يَستَقُونَ مِنْ ذكرياتِ الشَّيخِ مَعلوماتٍ لَمْ تَتَضَمَّنْها الكُتُبُ. كَما كانوا يُطرحونَ عليه الأسئلَةَ حتَّى يسْتَرْسلَ في حديثِهِ. وأحيانا كانوا يظُنُّونَ عَبرَ هذه الرِّواياتِ الأسطُوريَّةِ أنَّهُمْ وقَعوا على تَفسيرٍ معقولٍ لبَعْضِ الأمورِ التي لم يَجدوا حُلولاً لَها. لَقَدْ كانَ الشَّيخُ بِمَعرِفَتِهِ مَبْعَثَ تَقديرٍ واحترامِ عُلماءِ الآثارِ الذينَ سَعدُوا بِهذِهِ الدَّعوَةِ التي كانَتْ مَوضعَ فَخرِهِمْ واعْتِزازِهِمْ.

في تِلك الأمسيَّةِ لَم تَفُتْ على سالم كَلِمَةٌ واحدَةٌ مِمَّا قِيلَ وازْدادَتْ بِمُرورِ الزَّمَنِ مَعرِفَتُهُ بِقصرِ الأخيضرِ وبالحَياةِ الزَّاهيةِ الرَّاقيةِ لذلك العَصرِ، وكَمْ كانَتْ دهْشَتُهُ عظيمةً عِندما عَلِمَ أنَّ بِلادَهُ كانَتْ قَبلَ ما يَربُو على ألْفِ عامٍ مَركزاً لِحَضارةٍ زاهِرةٍ تشعُّ على العَالَمِ بِنُورِها وتَفُوقُ بِمراحِلِ حَضارةِ أوروبَّا في ذلك العَصرِ.

إذا كانَتِ الأساطيرُ تَعبيراً عن واقعٍ زائلٍ رُبَّما جُمِّلَ وحُوِّرَ مع الزَّمَنِ فإنَّ الحَقيقَةَ التَّاريخيَّةَ لا تَخلُو هي الأُخرى من فتنةٍ وجَمالٍ.



بَعْدَ انْقِضَاءِ بِضعةِ أشهُرٍ

دُعِيَ جَميعُ سكَّانِ القَريةِ إلى مَتْحفِ العاصمةِ. فارْتَدُوا أحلى ثِيابِهِمْ وقاموا بالرِّحلةِ في حافلةٍ استُؤْجِرَتْ خصِّيصاً لهذه المُناسبةِ. وكانَ يَنتابُهُمْ مزيجٌ منَ الفَرحةِ الغَامِرةِ والفضُولِ الكبيرِ، خاصَّةً وأنَّ مُعظَمَهُمْ لَمْ يكُنْ قدْ زارَ هذه العاصمةَ الشَّهيرَةَ. وسَندَعُ وَصْفَها إلى مُناسبَةٍ أُخرى، إذْ أنَّها منَ الجمالِ والرَّوْعةِ بِحَيثُ يَحتاجُ وصفُها إلى كتابٍ كاملٍ.

وكانَ في انتظارِهِمُ المَسؤُولُ المُشرِفُ على المَتْحفِ ويُسَمَّى أمينَ المَتحف يَصحَبُهُ علماءُ الآثارِ وصديقُنا المُصوِّرُ بطبيعةِ الحالِ، لمُرافقَتِهِمْ في زِيارةِ المتحفِ ولا سيَّما القاعةِ المُخَصَّصةِ لقَصرِ "الأخيضر".



وانتابَتِ الزَّائرينَ الدَّهشةُ لضَخامةِ القاعاتِ وللأهمِّيَّةِ المُعطاةِ لقطعٍ اعتادُوا أنْ يروهـا ملقاةً على الأرضِ في موقعِ الحفريَّاتِ. فخيَّمَ عليهم الصَّمتُ وشَعَرُوا ببَعضِ الضّيقِ.

وفي ختامِ الزّيارةِ شكَرَهُمْ أمينُ المَتْحفِ بِحرارةٍ على المُساعدةِ الفعَّالةِ التي قدَّمُـوها لعُلماءِ الآثارِ وخصَّ بالذّكرِ الجدّ الذي سمحَتْ قِصَصُهُ بإفضاءِ ذلك الجـوِّ الأسطوريِّ الرائعِ على القَصرِ وسمَحَتْ كذلك بكشْفِ جانبٍ من حقيقةِ العصرِ الذي شُيِّدَ فيه.

ثمَّ تَوَجَّهَ إلى سالم وقالَ لَهُ باسماً :

ـ وهذه هديَّتُك.

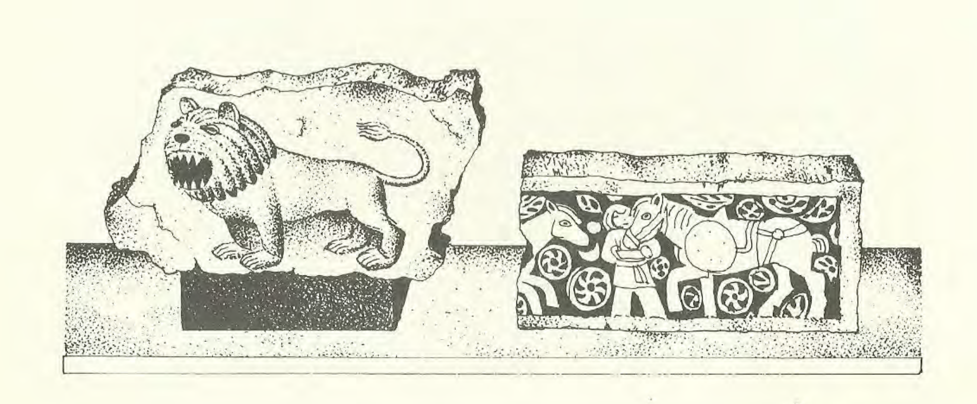
وأعطاهُ ربطةً صغيرةً. فَفتحَها سالم بارْتباكٍ أمامَ الجَميعِ وهتَفَ بِسَعادةٍ :

ـ إنَّهُ أسدِي.

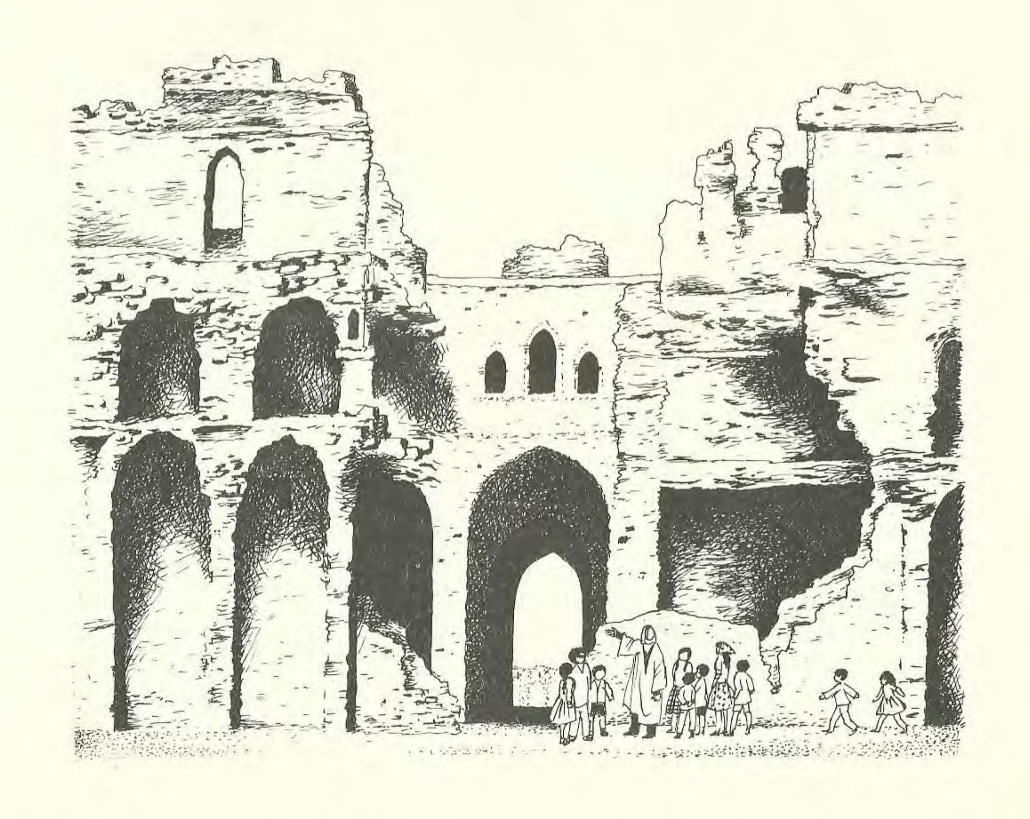
نعم، إنَّهُ الأسدُ بِلَوْنَيْهِ الأزْرقِ والأسودِ وبِشدقِهِ المُخيفِ... وقد رُكِّبَ على قاعدةٍ مستطيلَةٍ... وكان عبارةً عن تِمثالٍ مُطابقٍ للتّمثالِ الأصليِّ الذي كانَ معروضاً في إحدَى الواجِهاتِ الزُّجاجِيَّةِ في مكانٍ بارزٍ في وسطِ القاعةِ.

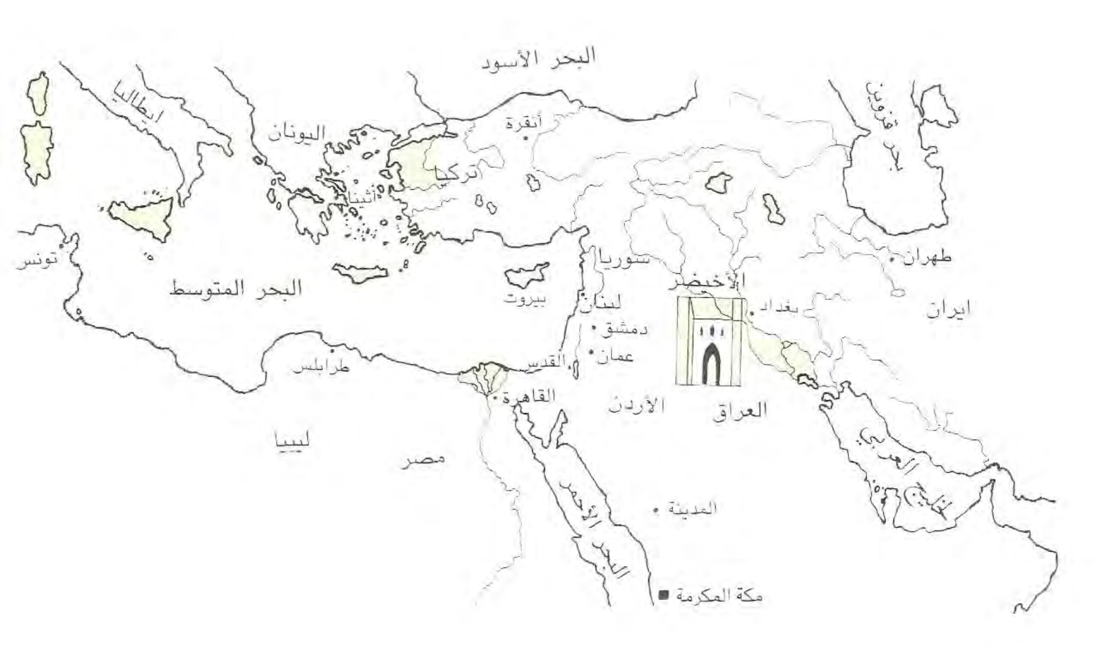
وكانَ المصوِّرُ بالطَّبعِ هُو الذي طلَبَ من صانعٍ مُتَخَصِّصٍ في اسْتِنْسَاخِ التُّحفِ الفنِّيَّةِ صَنْعَ نموذجٍ لتِمثالِ "الأخيضر" لِيُفاجِئَ بِه صديقَهُ سالم.

مُنْذُ تلك اللَّحظةِ اتَّخَذَ سالم قراراً مُهِمّاً وهُو أن يُصبحَ في المُستقبلِ عالِمَ آثار حتّى وإنْ كلَّفهُ ذلك سنينَ طويلةً في الدِّراسةِ. ولرُبَّما يَستَطيعُ بِفَضْلِ صديقِهِ مراد الاشتراكَ في أعمالِ التَّنقيبِ رَيْثَما يكبُرُ فبِلادُهُ لا تَعوزُها مَواقِعُ الحَفريّاتِ الأثَرِيَّةِ وهيَ مَهْدُ أقدمِ حضاراتِ الدُّنيا.



أمَّا قصرُ الأخيضر فأصبحَ بإمكانِكم الآن زِيارَتَهُ بِمُساعدةِ مُرشدٍ سياحِيٍّ. وقَد يقصُّ علَيكُمْ - إذا ما رغبَ في ذلك - أساطيرَ تَدورُ حَوْلَ تاريخِ القصرِ اسْتُمِدَّ مُعْظَمُهَا من حكاياتِ الجَدِّ. وقَدْ يُحَدِّثُكُمْ أيضًا عن قِصَّةِ اكْتِشافِ الأسدِ الأزرَقِ وقَدْ تَظنُّونَ عنْدَئِذٍ أنَّ الأمرَ لا يَعدُو أنْ يكونَ قصَّةً كسائرِ القِصَصِ...




البحر الأسود
إيطاليا
اليونان
أنقرة
تركيا
أثينا
بحر قزوين
تونس
البحر المتوسط
سوريا
الأخيضر
طهران
بيروت
لبنان
بغداد
ايران
دمشق
عمان
القدس
طرابلس
القاهرة
الأردن
العراق
ليبيا
مصر
الخليج العربي
البحر الأحمر
المدينة
مكة المكرمة



الناشر : دار ثقافة الاطفال ـ ص ب 14176 بغداد
تلكس 2606 ـ هاتف 7760621

ثمن النسخة داخل العراق 100 فلس عراقي
وخارج العراق (150) فلساً عراقياً أو مايعادلها